والإشراقات الوجدانية كل القيمة فى معالجة الموضوع . وهذا كله فى مجموعة « سارق النار » محدود بقدر ، حين يقاس إلى مثله عند توفيق .

وفى اعتقادى أن مسرحية « سارق النار » هى خير ماق المجموعة بالقياس إلى توافر هذه العناصر ، وبالقياس إلى لمسات الحوار الموحية ؛ وإلى رائحة النضج التى تشم فى هذا الحوار .

ثم تليها مسرحية « فتنة » فمسرحية « جزيرة بلا رجل » فمسرحية « المثال التائه » فمسرحية « اللحن الكئيب » . .

أما مسرحية « ميلاء » فالفشل واضح فيها . وأخشى أن يكون منشأ هذا تخلى روعة الأساطير الإغريقية ووحيها عن « المؤلف » فيلاء عربية فى جوها وشخصياتها . وقد بقيت عارية من اللحم والدم والفن . ولهذا دلالة خطيرة ! لا أحب أن آخذ بها فى هذه المجموعة بل أوثر أن أنتظر تجربة أخرى جديدة !

* * *

بقيت كلمة حق :

إننا إذا استثنينا توفيق الحكيم . ورحنا نبحث فى الشرق العربى عما أخرجته المطبعة فى هذا الفصل — فصل المسرحيات الأسطورية . نجد مجموعة « سارق النار » هى الأولى فى جميع المحاولات . ولعل المستقبل يضمر لمؤلفها من النضوج والتمكن مايقفز به إلى الصف الأول . ولكن بعد جهد طويل .

سيد قطب

الأميرة علية بنت المهدى

١٦٠ — ٢١٠

للأستاذ سعيد الديوه جى

عاشت علية بنت المهدى فى أوج الدولة العباسية ، ولدت فى خلافة المنصور ، وتقلبت فى نعيم أبيها المهدى وشاهدت بغداد وهى أعظم مدينة فى العالم : دار السلام ، وعاصمة الإسلام . مقر الخلافة وكعبة الأدب ، ودار العلم والحكمة ، جنة الأرض ، وغرة البلاد ، ومجمع المحاسن والطيبات ، ومدينة الظرائف واللطائف ، فهى حاضرة الدنيا وما عداها بادية ، وقد سأل الإمام الشافعى رجلاً : هل رأيت بغداد قال : لا . قال . مارأيت الدنيا

ولا الناس هذه هى بغداد التى كانت عاصمة الرشيد والتى مثل فى قصورها وحدائقها وملاعبها حوادث ألف ليلة وليلة ، التى كانت وما زالت مضرب الأمثال فى العظمة والسعة والنظام ، وفى سبيلها سفكت دماء ، وثلت عروش ، وانقرضت دول إثر دول . وهى صامدة تقاوم حدثان الدهر ، وتضحك من فتنة آدم بها ؛ فهى بحق « زوراء » بوجه كل عدو .

أما أمها : فهى مكنونة : من جوارى المدينة المشهورات بالحسن والجمال والغناء والدلال والشعر والأدب ولها صوت رخيم ، فاجتمع فيها جمال الخلق وجمال الصنعة وافتتن بها الناس ، وبلغ أمرها المهدى ، وكان يرغب بها ولكنه يخشى غضب أبيه المنصور المعروف بجده ، فاشتراها سراً بمائة ألف درهم ؛ ولما دخلت القصر غلبته على أمره وملكت قلبه ، فمال اليها دون بقية جواريه وفضلها حتى على « الخيزران » فكانت الخيزران تقول : « والله ما ملك امرأة أغلظ على منها » .

تولت أمها تربيتها بنفسها فحببت اليها الجمال منذ صغرها ؛ فنشأت مطبوعة على حب الفنون الجميلة ؛ أمرت بتعليمها الكتابة فأتقنتها ؛ واختارت لها الكتب الأدبية فدرستها ؛ وسلمتها إلى المؤدبين فأحسنوا تأديبها ؛ وأحضرت لها الفقهاء والعلماء فأخذت عنهم ، وكانت تريضها على قول الشعر منذ نعومة أظفارها فصارت من الشاعرات اللاتى يضرب المثل بشعرهن . كما كانت تطلعها على ألحان العرب وأصواتهم وتدربها على آلات الطرب . فكانت بلبل بنى العباس وهزارهم .

ولما كمل شبابها تطلع أمراء البيت المالك اليها وكل منهم يتمنى أن يحظى بالفن والعلم والجمال ، ولكن أباها آثر بها « موسى ابن عيسى الهاشمى » وهو أحد أبطال بنى العباس شجاعة وأدبا ودهاء . وتولى امارات الولايات المهمة . كمصر ؛ والعراق ؛ والشام ؛ واليمن .

ورثت علية من هذا الأمير أموالاً طائلة وعقارات فى الولايات التى تقلدها فاتخذت لها قصراً فخماً يضاهى قصور الخلفاء فى السعة والجمال ، يقع هذا القصر على ضفة دجلة بالقرب من قصر زبيدة « دار القرار » وقصر الرشيد « دار الخلد » ولقصرها شرف مطلة على دجلة ؛ وقد زينت شاطئه بما تحويه من النقوش المتقنة

والتصاوير الجميلة ؛ والألوان الزاهية ؛ كما كان لقصرها شرف أخرى تطل على الميدان — ميدان دار الخلافة — والقصر يضم آلاف الجوارى والخدم والحراس ؛ وبلغ من أمر القصر أن اتخذه الخليفة المعتصم داراً له بعد وفاتها .

فى الشرفات المطلة على النهر كانت تجلس علية ؛ تصعد أمامها السُّمريَّات والحرَّاقات والزَّبارب إلى دار القرار أو تنحدر إلى دار الخلد مقر عاهل الإسلام أمير المؤمنين الرشيد أعظم خليفة عرفه الشرق والغرب . فيها القواد والأمراء والعلماء وأهل الفن بل عِلْية أمامها أهل بغداد على اختلاف طبقاتهم . وترى وفود الملوك والعواهل يتقدمون بذلة وخضوع حاملين هداياهم معرضين ولاءهم لأمير المؤمنين .

علية والرشيد :

كان الرشيد مشغوفاً بأخته وقلما يصبر عنها ، وإذا زارته فانه كان يجلسها معه على سرير الخلافة . وذلك لما يراه من عقلها وأدبها وظرفها ؛ ورقة شعرها ، وجمال غنائها ؛ وحسن توقيعها ؛ وكثيراً ما كان يزورها فى قصرها ويطلب منها أن تقيم له الحفلات الغنائية ويقضى ليله عندها يصغى إلى أصوات الحور العين ؛ تردد فى جو قصرها ما أبدعته قريحة علية من الشعر وما صاغته من الألحان

وفى إحدى ليالى الربيع وقد نشر البدر أشعته الفضية على بغداد وجناتها وساد المدينة الهدوء وأطفئت أنوار دار الخلافة وأمير المؤمنين على فراشه يتململ تململ السليم . يطلب النوم فلا يجده ؛ وتوالت عليه الهواجس والأفكار فضاق صدره؛ بل ضاق به دار الخلد ؛ فخرج إلى حدائقه الغناء يتنقل من محل إلى آخر لينفس غمه ويزيل همه . ولكن السرور لم يجد إلى قلبه سبيلاً ؛ كأنه لم يشعر بما حوله من الأزهار والرياحين ؛ وما يحف به من الحور العين ؛ ترك القصر واتجه إلى قصر أخته « علية » هرع الخدم إلى الأميرة يعلمونها بقدوم أمير المؤمنين ؛ فأسرعت الأخت إلى أخيها ؛ وهى تعلم أن مجيئه فى مثل هذه الساعة ؛ ومن غير ميعاد ؛ لم يكن إلا لأمر أصابه أو هم أقلقه . وعلية أدرى الناس بمعالجة أخيها — كيف لا ؟ وهى أميرة الشعر والطرب .

جلس الرشيد فى الشرفة المطلة على دجلة . وأمرت علية جواريها أن يلبسن أنواع الثياب المزركشة ؛ ورصعت رؤوسهن بالعصائب الحريرية المكللة بالدرر والجواهر ؛ وأخذن معازفهن وجلسن قريباً من أمير المؤمنين واندفعت تغنى أبياتاً من نظمها وتلحينها والجوارى يرددن الغناء :

فرِّجوا كربى قليلاً فلقد صرت نحيلاً
افعلوا فى أمر مشغو ف بكم فعلاً جميلاً

فالشعر من نظمها ؛ واللحن من وضعها ؛ والصوت من قلبها وما خرج من القلب حل فى القلب ؛ فتغلغلت النغمات فى أعماق قلب الرشيد ودافعت الهموم ، فسر بذلك وابتسم فابتسمت الدنيا لعلية ؛ إذ أنها فرجت عن أخيها ؛ واستزادها فغنت من نظمها :

أوقعت قلبى فى الهوى وبحوت منه سـاله
وبدأتنى بالوصـل ثم قطعت وسلى ظالمه
توبى فانك عالمـه أولا فانك آثمـه

فطرب الرشيد طرباً شديداً . ثم استدناها منه وأخذ يتحدث معها عما كان به من الهم : وأمرت علية إحدى جواريها فغنت من أصوات سيدتها :

قل لذى الطرة والأصداغ والوجه المليح
ولمن أشعل نار الحب فى قلب قريح
ما صحيح عملت عيناك فيه بصحيح

وغنت جارية ثانية :

أنبس الماء الداما واسقنى حتى أنامـا
وافض جودك فى النا س تكن فيهم إماما
لعن الله أخا البخل وإن صلى وصاما

وبقى الرشيد عند أخته يستزيدها من الأصوات فتغنيه هى وجواريها حتى أذّن المؤذن يدعو الناس إلى ذكر الله وإلى الصلاة فلبى الرشيد داعى الله ونهضت أخته تودعه يحف بها الجوارى والبشر طافح على وجه الخليفة والسرور قد ملأ قلبه .

وكانت علية كثيراً ما تباغت أمير المؤمنين فى الأزياء المبتكرة والألحان التى تضعها أو الشعر الذى تجود به قريحتها — وفى أحد الأيام كتبت إليه تستزيره كعادتها — وما كاد يتوسط حديقة القصر حتى رأى أخته تستقبله هى وجواريها بأزياء جديدة مبتكرة وهن يرددن صوتاً من نظم أميرتهم وتلحينها :

تفديك أختك قد حُييت بنعمـ ـة لسنا نعدلها الزمان عديلا

إلا الخلود وذاك قربك سيدى لا زال قربك والبقاء طويلا
وحمدت ربى فى إجابة دعوتى ورأيت حمدى عند ذاك قليلا

وكان كثيراً مايستصحبها معه فى سفراته ومتنزهاته ، لتشاركه فى أفراحه وتخفف عنه عناء السفر فى أنغامها وأشعارها. خرج مرة إلى الرقة البلدة الجميلة التى كان الرشيد كثيراً ما يرتادها لجمالها وطيب هوائها وكثرة أزهارها وأثمارها ، فأحب أن تشاركه أخته بهذا الجمال الفتان فكتب إلى خال الهدى يأمره أن يصحبها معه إليه . وفى طريقها استيقظت صباح يوم على أصوات النواعير . فصغت إلى أنينها يتردد فى ذلك الفضاء الواسع يشارك كل مفؤود ويسلى كل محزون ويخفف أتعاب البائس ، ويحرك أشجان الهائم ويذكر الألف بألفه والحبيب بحبيبه ، والغريب بوطنه ، ويشكو إلى الله ظلم البشر — ولم تكن علية قد سمعت هذا الصوت السحرى الجميل فحرك أعجانها وهيج قلبها ، وذكرها ببغداد وما فيها ، ففاض الشعر من قلبها واندفعت تغنى على هذا التوقيع الطبيعى :

اشرب وغن على صوت النواعير
ما كنت أعرفها لولا ابن منصور
لولا الرجاء لمن أملت رؤيتـــه
ما جزت بغداد فى خوف وتقدير

وصلت الرقة بسلامة وشاركت أخاها الأنس والطرب ثم رجعت إلى دار السلام . ولما سافر الرشيد إلى الرى أمر علية أن ترافقه فوافقته كرهاً ، ولم يطب لها الخروج من قصرها جنة الدنيا ونعيمها إلى بلاد لا تعرفها وأناس لا تألفهم ، ولما وصل الموكب المرج جلست علية مع الرشيد وكان قلبها معلقاً ببغداد فأظهرت لأخيها شوقها فى شعرها فأنشدته :

ومغترب بالمـــرج يبكى لشجوه
وقد غاب عنه المسعدون عن الحب
إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه
تنشق يستشفى برائحة الركب

فأمرها الرشيد أن تعود إلى دار أنسها ومرحها .

وكان الناس يتقدمون إليها لتساعدهم فى قضاء حوائجهم عند الرشيد ، شفاعتها عنده مقبولة ، وكلمتها لا ترد ، وقاصـــدها لا يخيب ، وكيف يردها وهى تخاطبه لسان الشوق وتعبر له بأعذب الألحان .

أما تعلق « زبيدة » زوج الرشيد بالأميرة علية فكان لا يقل عن تعلق الرشيد بها . تشكو لها كل هم يصيبها وتطلعها على سرها وتستشيرها وتسترشد برأيها العائب — كما كانت تبث لها شكواها إذا ما رأت جفوة أو إعراضاً من أمير المؤمنين وتستعين بها عليه .

أهدى للرشيد جارية فى غاية الحسن والجمال وعلى جانب من العلم والأدب فأعجب بها الرشيد وقدمها على جواريه . ثم تعدى الأمر إلى أعظم من هذا حيث قدمها على زبيدة ، شق الأمر على زبيدة ، فقد أفلت « هرون » من يدها ، وظهر لها ضرة نافستها وتقدمت عليها — وداء الضرائر معروف وجد مع تعدد الزوجات فلا يغيظ المرأة أحد بقدر ضرتها « فالضرة مرة ولو كانت جرة » ولكن ما العمل والجارية قد احتلت مكان زبيدة وملأ حبها قلب هرون .

كتبت زبيدة إلى بنت عمها تستزيرها ، ولما حضرت عندها عرضت عليها أمرها وشكت ما تقاسيه من مرارة العيش منذ وجدت هذه الضرة وطلبت معونتها فقالت علية : « لا يهولنك هذا الأمر والله لأردنه إليك » .

نظمت عُلية أبياتاً . وصاغت فيها لحناً وجمعت جواريها وجوارى زبيدة عندها وأمرتهن أن يلبسن أفخر ثيابهن ويأخذن أجمل حلاهن ، وكللت رؤوسهن بالأزهار والرياحين ، وعطرتهن بالطيب والغالية ، وطرحت عليهن اللحن حتى أتقنه . انتشر الجوارى بين أشجار جنائن الخلد وأزهارها ، ولما كان وقت العصر خرج الرشيد للصلاة فى مسجد قصر الخلافة ، وما كاد يتوسط القصر حتى باغته الجوارى وكأنهن حوريات أفلتن من الجنة ، بأيديهن المعازف يتقدمهن عُلية وزبيدة ، وهن يردن بصوت واحد .

منفصل عنى وما قلبى عنـــه منفصل
ياقاطعى قل لى : لمن تربت غيرى أن تصل ؟

فطرب الرشيد غاية الطرب وتقدم إلى زبيدة وأخذ بيدها واعتذر منها ، ونادى يامسرور لا تبقين فى بيت المال درهما إلا نثرته على الجوارى . فيقال إنه نثر عليهن ستة ملايين درهم ولم يشاهد الرشيد فى يوم مسروراً كسروره فى هذا اليوم . عادت المياه إلى مجاريها وكفى الله زبيدة داء الغيرائر بفضل عُلية . فسبحان محول القلوب !!.

فما تصفو الدنيا الغدارة لأحد فهى لا تلبث أن تبدل الصفو بالكدر ، والسرور بالقهر ، والفرح بالحزن ، والهناء بالعناء ، تضحك اليوم وتبكى غداً ، وتعطى هذا وتحرم ذاك .

وبينما عُلية فى شرف قصرها ، تطل على القاصدين لدار الخلافة تترقب عودة أخيها الرشيد من « طوس » رأت حركة منكرة فى دار الخلد ، واضطرابا فى القصر بل فى بغداد أجمع ، فقد اجتمع الأمراء والولاة والقضاة وأرباب الحكم على اختلاف طبقاتهم بثياب العزاء فتفرست بهم فاذا بوجوههم عانية ، وقلوبهم خافقة ، وعيونهم دامعة ، وألسنتهم خرس . لا تقدر أن تعبر عن هول المصيبة التى حلت بأمير المؤمنين ، والرزء الذى أصاب العرب والمسلمين :— ان أمير المؤمنين الرشيد قد قضى نحبه فى طوس — اسودت الدنيا بعين عُلية وضاق بها القصر الواسع فقد فجعت بأخيها أمير المؤمنين الرشيد أعظم خليفة أظهر للعالم عظمة العرب والاسلام ، وأنفق فى سبيل العلم والعمران مايعجز عنه غيره — وكانت عاقبة هذا العامل الذى خضعت له ملوك الأرض ، ودانت له الأمم ، وانقادت إليه الشعوب صاغرة ، أن أدلى فى لحده وأهيل عليه التراب بعيداً عن عاصمة ملكه . فقد ضن عليه الزمن أن يدفن فى دار السلام ، المدينة التى جعلها كعبة العلم والأدب والفن ، بل عز على بغداد أن ترى الرشيد ميتاً يقبر فى لحودها بعد أن زانها حياً وجعلها سيدة البلاد .

وفعت المعازف . وبحت الحناجر وساد الهدوء والخشوع فى قصر عُلية فلا يسمع إلا صوت المؤذن وقراءة القرآن ، ولا ترى عُلية إلا فى محرابها تصلى ، أو بكتابها تقرأ ، أو تندب أخاها ، أو تنتقل فى خمائل قصرها تطلب العزلة لتخفف عنها أحزانها .

عز على الأمين أن يرى أميرة الشعر والطرب وهزار بنى العباس على هذه الحالة المؤلمة فكان يتردد إلى زيارتها كثيراً ويدعوها إلى قصره . والحزن لايجد قراراً فى قلب شب على الشعر والأدب والعزف والطرب فلم تلبث أن وافقت الأمين فى لهوه ومرحه .

عُلية اليوم قد ذهب نور شبابها ، واشتعل الشيب فى رأسها ، وتغيرت نبرات صوتها ، ولكن نفسها لم تشب ، بل بقيت نفساً طاهرة ، تحب الجمال ، وتسمع الصوت الجميل ، وتعشق كل جميل ، ومازالت هذه الزهرة تذبل حتى ذوت وفارقت الدنيا سنة ٢١٠ هـ وقد مضى عليها خمسون ربيعاً .

وفى صبيحة يوم رأى أهل بغداد أمير المؤمنين المأمون يسير خاشعاً أمام نعش مهيب يحف به الأمراء والوزراء والعلماء فحف به أهل بغداد ، ووقف النعش على مقابر قريش وصلى عليه الخليفة ، وأدليت جثة عُلية ودفنت درة بنى العباس فى هذا التراب .

للحديث بقية

سعيد الديوه جى

السيف والنار فى السودان

تأليف

سلاطين باشا

ترجمة جريدة البلاغ

هـذا الكتاب يعد من أهم المستندات التاريخية التى لابد من الاطلاع عليها لمعرفة الحوادث التى تقلبت على مصر والسودان من خمسين سنة وهى الحوادث التى ما زلنا نعانى تتائجها إلى الآن .

الثمن ٣٥ قرشاً — ١٠ قروش للبريد

يطلب من دار الكتب الأهلية بميدان الأوبرا بمصر

المراسلات باسم رشدى فليل